أهل الدهر دونك والدهر

وقال يمدح أبا أحمد عبيد اللّه بن يحيى البحتريّ المنبجيّ:

[الطويل]

أَرِيقُكِ أَمْ مَاءُ الْغَمَامَةِ أَمْ خَمْرُ
بِفِيَّ بَرُودٌ وَهْوَ فِي كَبِدِي جَمْرُ(١)
أَذَا الْغُصْنُ أَمْ ذَا الدِّعْصُ أَمْ أَنْتِ فِتْنَةٌ
وَذَيَّا ٱلَّذِي قَبَّلْتُهُ الْبَرْقُ أَمْ ثَغْرُ(٢)
رَأَتْ وَجْهَ مَنْ أَهْوَى بِلَيْلٍ عَوَاذِلِي
فَقُلْنَ نَرَى شَمْساً وَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ(٣)
رَأَيْنَ الَّتِي لِلسِّحْرِ فِي لَحَظَاتِهَا
سُيُوفٌ ظُبَاهَا مِنْ دَمِي أَبَداً حُمْرُ(٤)

= فضائل ذلك الممدوح أنه إذا كسر عظماً فليس بمقدرة أحد أن يُصلحه، وبالمقابل فإنه لا يقدر أحد على كسر عظم عمل الممدوح على جبره.

(١) يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع غزليّ. الغمامة: السحابة. يُخاطب الشاعر محبوبته مستفهماً مستفسراً عمَّا يُحسّ طعمه في فمه من قُبلاتها، هل هو ماء سحابة لطيفة أم هل هو خمر يُسكر وهل ريقها يبثّ رُضابه البارد المحيي، فيُلهب كبده ويزيد من جوى قلبه.

(٢) يقصد بالغصن قوام محبوته. الدعص: كثيب الرمل، ويقصد به ردفها. ذيّا: تصغير ذا. الفتنة السحر، والمرأة سحر بحدّ ذاته تفتن حتى الجبابرة فيخضعون لسلطانها. يسأل الشاعر حبيبته عن سحر وسرّ فتنتها، فكلّ ما فيها جميل، إنها غصن رقيق يتحرّك مع كل نسمة ويميس بلطف عجيب، فيحسر البشر بالنظر إليها دون سواها، ولقد قبّل الشاعر ما يُحيّره فيسأل عن طبيعته هل هو برق صاعق يهزّ كيانه أم هو ثغر حقيقي؟

(٣) و (٤) العواذل، المفرد عذول: اللّائمات. العذول دائم اللوم، وهو مطبوع على الحسد والكره، ومع ذلك فهؤلاء اللائمات رأين شمساً مشرقة تُضيء ظلمة الليل، فإذا بهن يعترفن لها بسلطان جمالها وتأثيره في ليل لم تُشرق شمسه بعد، ولقد سحرتهن بنظرات قاتلة كأنها أطراف سيوف حمراء دامية من دماء الشاعر لشدّة حبّه لها.

تَـنَـاهَـى سُـكُـونُ الْـحُـسْـنِ فـي حَـرَكَـاتِـهَـا
فَـلَـيْـسَ لِـرَاءٍ وَجْـهَـهَـا لَـمْ يَـمُـتْ عُـذْرُ[١]
إِلَـيْـكَ ابْـنَ يَـحْـيَـى بْـنِ ٱلْـوَلِـيـدِ تَـجَـاوَزَتْ
بِـيَ الْـبِـيـدَ عِـيـسٌ لَـحْـمُـهَـا والـدَّمُ الـشِّـعْـرُ[٢]
نَـضَـحْـتُ بِـذِكْـرَاكُـمْ حَـرَارَةَ قَـلْـبِـهَـا
فَـسَـارَتْ وَطُـولُ الأَرْضِ فـي عَـيْـنِـهَـا شِـبْـرُ[٣]
إِلـى لَـيْـثِ حَـرْبٍ يُـلْـحِـمُ الـلَّـيْـثَ سَـيْـفُـهُ
وَبَـحْـرِ نَـدًى فـي مَـوْجِـهِ يَـغْـرَقُ الـبَـحْـرُ[٤]
وإِنْ كَـانَ يُـبْـقِـي جُـودُهُ مِـنْ تَـلِـيـدِهِ
شَـبِـيـهـاً بِـمَـا يُـبْـقِـي مِـنَ الْـعَـاشِـقِ الـهَـجْـرُ[٥]

---

(١) إنها المثال الجمالي النسائي المكتمل في لفتاتها وحركاتها، فكلّ ما فيها أخّاذ، وليس غريباً على من شاهدها أن ينجذب إليها طائعاً، وإن واتته المنية لا يلام، وإن لم يمت لا عذر له.

(٢) و (٣) البيد، الواحدة بيداء: الصحاري. العِيس: الإبل. يروى «العنس» بدلاً من «العيس». تخلص الشاعر إلى ممدوحه، إنه قصيدة على ناقة عبر عليها فلوات شاسعات أضناها كثرة المسير فأكل لحمها ودمها ومن تحمله إلى الممدوح، وفي جعبته شعر ومدح، وهذا ما جعل قلبها ينتعش، رغم شدّة عطشها، فإذا بها تطوي المسافات إليه كأنها شبر لشدّة شوقها إلى ريه.

(٤) الليث: من أسماء الأسد، يمدح الشاعر ممدوحه بالشجاعة، فهو يُطعم الليث البطل ضربة سيفه تُودي به إلى الجحيم، ومن باستطاعته قتل نموذج بطولي فهو بلا أدنى شك نادر الوجود في عالم القوّة والشجاعة. ومن صفات الممدوح أيضاً أنه بحر ندىً كريم يغرق فيه البحر العظيم بما فيه من خيرات جسام فيبتلعه وينثر خيراته بين محبيه ورعيته.

(٥) التليد: الموروث من الآباء. ولما يُشتهر به الممدوح من فيض الكرم فإنه لا يُبقي في خزائنه ممَّا ورثه عن آبائه إلّا النزر القليل، وهذا لا مطمع فيه لطامع شأنه في ذلك شأن المحبّ الذي أنهكه الحبّ فلم يبق منه إلّا هيكل آدمي قوامه نفسه وعظامه وأنفاسه.

فَـتـىً كُـلَّ يَـوْمٍ تَـحْـتَـوِي نَـفْـسَ مَـالِـهِ
رِمَـاحُ الـمَـعَـالِـي لا الـرُّدَيْـنِـيَّـةُ الـسُّـمْـرُ[١]
تَـبَـاعَـدَ مـا بَـيْـنَ الـسَّـحَـابِ وَبَـيْـنَـهُ
فَـنَـائِـلُـهـا قَـطْـرٌ ونَـائِـلُـهُ غَـمْـرُ[٢]
وَلَـوْ تَـنْـزِلُ ٱلـدُّنْـيَـا عَـلـى حُـكْـمِ كَـفِّـهِ
لأَصْـبَـحَـتِ ٱلـدُّنْـيَـا وَأَكْـثَـرُهـا نَـزْرُ[٣]
أَرَاهُ صَـغِـيـراً قَـدْرَهَـا عُـظْـمُ قَـدْرِهِ
فَـمَـا لِـعَـظِـيـمٍ قَـدْرُهُ عِـنْـدَهُ قَـدْرُ[٤]
مَـتَـى مَـا يُـشِـرْ نَـحْـوَ الـسَّـمَـاءِ بَـوَجْـهِـهِ
تَـخَـرَّ لـهُ الـشِّـعْـرَى وَيَـنْـخَـسِـفِ الـبَـدْرُ[٥]
تَـرَى الْـقَـمَـرَ الأَرْضِـيَّ والـمَـلِـكَ الَّـذِي
لَـهُ الـمُـلْـكُ بَـعْـدَ الـلَّـهِ وَالـمَـجْـدُ والـذِّكْـرُ[٦]

---

(١) تحتوي: تستحوذ. الردينية: رماح تنسب إلى امرأة كانت تقوّم الرماح تسمّى بردينة. ومن شدّة الكرم أن الممدوح يهب ماله ليبلغ أعلى مراتب المجد والشهرة بتلك الفضيلة، وهو أيضاً منيع على أن يُستهدف من قبل أعدائه فلا يصلون إليه بضرر لقوّته وشجاعته وقهره لهم ولذا فلا يقدرون على سلبه شيئاً من أمواله.

(٢) و (٣) يُقيم الشاعر مقارنة بين ممدوحه والأمطار؛ فالقطر هزيل ضعيف لا يكفي لإرواء الأرض والبشر، بينما تجود كفّ الممدوح ببحر طام عظيم يشمل كلّ الوجود، وهو لو تملك الكون بما فيه لفرّقه بين محبيبه ورعيّته، وذلك قليل نادر إذا رجع الأمر إلى نيّته، وهذا يعني أن يبقى من الدنيا النزر اليسير.

(٤) وما يدلّ على عظم قدر الممدوح أنه نظر إلى الدنيا فوجدها لا تستحقّ اهتماماً عظيماً ومن الخير ألّا تقدّر فوق قدرها لحقارة شأنها في ميدان الكرم.

(٥) ومن مغالاة الشاعر أن الممدوح جميل مشرق الوجه وضاؤه، لذا فإذا نظر إلى الشعرى ذلك النجم الساطع بنوره الذي يؤنس الساهرين انكسفت خجلاً من إطلالة وجهه وتبعها القمر وذلك لتحوّله من حال إلى حال على عكس وجه الممدوح الذي يبقى على حاله.

(٦) يخاطب الشاعر البشر أنهم يَرَوْن قمراً أرضياً من لحم ودم، إنه ملك منهم وفيهم يذكر =

كَـثِـيـرُ سُـهَـادِ ٱلْـعَـيْـنِ مِـنْ غَـيْـرِ عِـلَّـةٍ
يُـؤَرِّقُـهُ فِـي مَـا يُـشَـرِّفُـهُ الْـفِـكْـرُ(١)
لَـهُ مِـنَـنٌ تُـفْـنِـي الـثَّـنَـاءَ كَـأَنَّـمَـا
بِـهِ أَقْـسَـمَـتْ أَنْ لَا يُـؤَدَّى لَـهَـا شُـكْـرُ(٢)
أَبَـا أَحْـمَـدٍ مَـا الْـفَـخْـرُ إِلَّا لِأَهْـلِـهِ
وَمَـا لِامْـرِىءٍ لَـمْ يُـمْـسِ مِـنْ بُـحْـتُـرٍ فَـخْـرُ(٣)
هُـمُ الـنَّـاسُ إِلَّا أَنَّـهُـمْ مِـنْ مَـكَـارِمٍ
يُـغَـنِّي بِـهِـمْ حَـضْـرٌ وَيَـحْـدُو بِـهِـمْ سَـفْـرُ(٤)
بِـمَـنْ أَضْـرِبُ الأَمْـثَـالَ أَمْ مَـنْ أُقَـيِـسُـهُ
إِلَـيْـكَ وَأَهْـلُ الـدَّهْـرِ دُونَـكَ وَالـدَّهْـرُ(٥)

= بعد اللَّه عزّ وجلّ على المنابر، وبتوفيق اللَّه تعالى نال المجد، إنه يذكر اسمه بعد ذكر ربّ العالمين.

(١) السهاد: السهر. علَّة: سبب. ومن طبيعة الممدوح أنه يأرق فلا يعرف للنوم طعماً، لأنه دائم التفكير بما يسمو به إلى سُدّة المعالي، وهذا أكبر همّه الذي يؤرقه.

(٢) المنن، الواحدة مِنّة: الإحسان. الثناء: المدح. إن إحسان الممدوح عظيم يشمل سائر الناس، وهو يستحقّ الثناء العظيم، وهذا الثناء لا يُمكن أن يفي الممدوح حقّه لأن فضائله أعظم من أن تُكافأ بشكر ومديح.

(٣) و (٤) بحتر: قبيلة الممدوح. يُخاطب الشاعر ممدوحه فيُكنّيه بأبي أحمد، إنه أهل لكلّ مدح، وبه افتخرت قبيلته ذات النسب العريق في الكرم الذي ينتهي إلى طيّئ، فالكرم فيها متأصل منذ حاتم. إنهم من عنصر مميّز، من البشر امتازوا بالكرم ومكارم الأخلاق وتناقلت ألسن الناس من حضر وبدو مآثرهم ومفاخرهم، وميّزوهم عن غيرهم.

(٥) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٤٢٧. ويروى «نضرب»؛ بدلاً من «أضرب» ويروى «نقيسه» بدلاً من «أقيسه». يرفع الشاعر من قدر ممدوحه ويجعله فوق سائر الناس، فلم يعثر فيهم على من يُشبهه أو حتى يُقاربه في دهره كرماً وشجاعة ومحتداً.